

حقيقة الزهد

يرتبط الزهد في أذهان البعض بجوانب شكلية لا علاقة لها بحقيقته ، وقد يتوهم بعض الناس خطأ أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال ، وربما قليل الحيلة ، وربما رث الثياب أو مخرقها ، صوته لا يكاد يبين ، ويده لا تكاد تلامس مصافحها ، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل ، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها ، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع ، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب ، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر .

وقد قال أهل العلم : ليس الزاهد من لا مال عنده ، إنما الزاهد من لم تشغل الدنيا قلبه ولو ملك مثل ما ملك قارون ، وسئل الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) : أيكون الرجل زاهداً وعنده ألف دينار؟ قال : نعم ، إذا كان لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت ، ولذا كان من دعاء الصالحين : اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أن ناساً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالْأَجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ ، إِنَّ بِكُلِّ تَسِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ، قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " (متفق عليه) ، فلما سابقهم الأغنياء في التسييح والتهليل والتكبير ، وكلموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك قال لهم (صلى الله عليه وسلم) : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " .

ما أجمل الدينَ والدُّنيا إذا اجتمعَا

وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

ولا شك أن النظرة الخاطئة للزهد جرّت إلى السلبية والالتكالية والبطالة والكسل والتواكل والتخلف عن ركب الأمم ، مع أن ديننا هو دين العمل والإنتاج والإتقان والأخذ بالأسباب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو جِمْاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا " (مسند أحمد) ، فهي تغدو وتروح ضربًا في الأرض وأخذًا بالأسباب.

وقد جمع القرآن الكريم بين من يضربون في الأرض أخذًا بالأسباب

ومن يجاهدون في سبيله سبحانه ، فقال (عز وجل) : " عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَسْرَمْتَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (المزمل : ٢٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " السَّاعِي عَلَى الْأَزْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارَ " (متفق عليه) ، ولما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلاً قوياً جلدًا ، ورأوا من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : " يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبِيَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاحْرًا وَتَكَاتُرًا فِي سَبِيلِ الطَّاعُوتِ " (المعجم الصغير للطبراني).

فالإسلام قائم على التوازن بين حاجة الروح وحاجة الجسد ، حيث يقول الحق سبحانه

: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا

مِن فَضْلِ اللَّهِ وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (الجمعة : ٩-١٠) ، وَكَانَ سَيِّدُنَا
عِرَاقُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ :
"اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي ، فَارْزُقْنِي مِنْ
فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ " .

فالزهد الصحيح ليس قريناً للفقير ، بل قد يكون قرين الغنى ، ليملك الإنسان ثم
يزهد ، فهو زهد الغني ، وليس زهد المعدم ، كما أن الزهد لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ،
فالأخذ بالأسباب شيء والزهد شيء آخر ، يتكاملان ولا يتناقضان ، وعندما قَالَ النَّبِيُّ
(صلى الله عليه وسلم) : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ " ، قَالَ رَجُلٌ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَالَ (صلى الله عليه
وسلم) : " إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ " (صحيح مسلم).

* * *

